الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في «كتاب الكبائر» :

بابٌ ذكر الرياء والسمعة

وقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] .

قال رحمه الله تعالى:«**بابٌ ذكر الرياء والسمعة**»؛والرياء والسمعة آفتان من آفات القلوب ومرضان من أمراض القلوب

والرياء : أن يقوم بالعمل ويعمل على تحسينه، ويكون مراده بذلك مراءاة الناس وثناءهم ومدحهم له.

والسمعة : هي أن يقوم بالعمل وأن يتحدث به عند الناس .

فكلٌّ من الرياء والسمعة قيامٌ بالعمل من أجل طلب ثناء الناس ومحمدتهم ؛ والرياء يتعلق بالرؤية، والسمعة تتعلق بالسماع. المرائي يُري الناس عمله ويُظهره لهم طالبًا ثناءهم عليه ، والسمعة أن يسمّع بعمله ، يقوم بأعمال لا يراه الناس فيها لكنه يسمّع بعمله، فعلتُ كذا وفعلتُ كذا إلخ.

وكلٌّ من الرياء والسمعة مبطلٌ للعمل ؛ لأنه فساد في النية ، والله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه وابتغاء مرضاته جلّ في علاه، وهو القائل في الحديث القدسي: ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)). والله عزّ وجلّ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا، والخالص : هو الصافي النقي، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] ، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] ، وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] ، فهو عزّ وجلّ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه. والرياء والسمعة يفتقدان الإخلاص ، بل يتنافيان مع الإخلاص.

- ومن الرياء: ما هو رياءٌ خالص؛ وهو رياء المنافقين، ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢] ، وهذا كفرٌ أكبر ناقلٌ من الملّة محبطٌ للأعمال كلها، صاحبه في الدرك الأسفل من النار ، وهو الذي يُري الناس أنه مؤمن وهو في باطن قلبه كافر بالله سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:١٤].
- والنوع الثاني من الرياء: وهو يسير الرياء، ليس الرياء الخالص وإنما يسير الرياء، وهذا يقع من الموحِّد، ولا يبطل العمل كله، وإنما يبطل العمل الذي خالطه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان صافيًا نقيًا لا يراد به إلا الله سبحانه وتعالى.

أورد رحمه الله قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾؛ يرجو: أي يطمع في لقاء الله، والفوز برضا الله عزّ وجلّ ، ونيل ثوابه ، والنجاة من عقابه .

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ؛ أي أنه لا نجاة ولا فوز برضا الله سبحانه وتعالى إلا بهذين الأمرين: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ؛ وعلى هذين الأمرين يقوم الدين كله.

والعمل الصالح : هو الموافق للهدي هدي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، والعمل الذي لا شرك فيه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ هو الخالص الصافي النقي الذي لم يُرَدْ به إلا الله. فاجتمع في هذه الآية الكريمة شرطا قبول الأعمال، وهما:

١- الإخلاص للمعبود ، الذي هو مقتضى شهادة «أن لا إله إلا الله».

٢- والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم، الذي هو مقتضى شهادة «أن محمدًا رسول الله» صلى الله عليه وسلم.

وقوله: **﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾** ؛ «أحدًا» جاءت نكرة في سياق النهي، فتفيد العموم، أي أيَّ أحدٍ كان، لا ملَك مقرَّب، ولا نبيّ مرسَل ، فضلاً عمن هو دونهما.

قال رحمه الله تعالى :

١٠ – عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من سمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به)) أخرجاه. قيل: معنى «من سمَّع سمَّع الله به» أي فضحه يوم القيامة ، ومعنى «من يرائي» أي من أظهر العمل الصالح للناس ليعظَّم عندهم «يرائي به الله» قيل معناه: إظهار سريرته للناس.

****

قال رحمه الله تعالى: عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((من سمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به))** ؛ «من سمَّع» أي: بعمله. والتسميع الذي هو السمعة أمرٌ يتعلق بحاسة السماع ، هو نوع من الرياء لكنه يتعلق بحاسة السماع ، يُظهر العمل لدى الناس بإسماعهم عن ذلك العمل ، أنه فعل، وأنه قام بكذا إلخ، ويكون مراده بإسماعهم بهذه الأعمال التي قام بها طلب محمدة الناس وطلب ثنائهم.

((من سمَّع سمَّع الله به)) وهذا فيه أن الجزاء من جنس العمل ؛ لما كان من شأن هذا العامل أنه يسمّع بعمله حتى يطلب ثناء الناس عليه فإن الجزاء من جنس العمل وهو أنَّ الله يسمّع به، وقيل في معناه: أي أن الله سبحانه وتعالى يفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد .

((ومن يرائي يرائي الله به)) ؛ «ومن يرائي» أي بعمله ، والرؤية أو المراءاة تتعلق بحاسة البصر.

كلٌّ من السمعة والرياء إظهارٌ للعمل طلبًا لمحمدة الناس ، لكن الرياء يتعلق بحاسة البصر، والسمعة تتعلق بحاسة السمع . وغالبًا أن المرائي إذا لم يُرَ عمله احتاج إلى السمعة ، وإذا رئي عمله اكتفى برؤية الناس له ، لكن إذا لم يُرَ عمله، كانت أعمالاً لم تُرَ من أعماله وهو يريد إظهارها للناس ليس له طريق إلا السمعة.

نعم استجد في هذا الزمان طريق آخر لم يكن موجودًا في الأزمنة السابقة، وهو ما يفعله كثير من الناس عند أدائهم للمناسك وأعمال الحج والعمرة يلتقط لنفسه في كل موضع منها صورة أو صورًا ، وهذه والله من المصائب العظيمة، عند الكعبة يلتقط لنفسه، وفي المسعى وعند عرفات وعند رمي الجمار، حتى رأينا بعضهم عندما يريد صاحبه أن يلتقط له الصورة يرفع يديه على هيئة الداعي، ويصلح من نفسه ويتهيأ على صفة الداعي ثم تُلتقط له الصورة، وإذا انتهى التصوير نزلت يداه، ثم يحمل معه هذه الصورة ويضعها في ألبوم أو يعلقها في أماكن البيت ويراها الناس في تلك الصورة. فكان قديمًا من لم ير الناس عمله يسمّع بعمله، يقول لهم: فعلت وفعلت وفعلت، لكن الصورة الآن أدَّت مهمة التسميع بشكل أكبر، ما يحتاج أن يكلم الناس ويقول فعلت، يقول: خذ، انظر، والناس يقلِّبون هذه الصور ويرونه وهو في المطاف وهو في المسعى، وهو في كل أعمال الحج! هل هذا يتوافق مع قول الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] ، وقوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقوله عليه الصلاة والسلام: ((مَنْ حَجَّ لِلهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)) ؟! فهذه من المصائب العظيمة والبلايا الكبيرة التي بُلي بها كثير من الناس ، بل بعضهم أصبح لا همَّ له في كل شعيرة من الشعائر ومنسك من المناسك إلا أن يلتقط الصورة تلو الأخرى لنفسه ولمن معه، حتى في المطاف وفي السعي وفي رمي الجمار وفي كل أعمال المناسك لا همَّ له إلا التقاط هذه الصور .

قال: **((من سمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به)) أخرجاه** : أي البخاري ومسلم.

((قيل: معنى «من سمَّع سمَّع الله به» أي فضحه يوم القيامة، ومعنى «من يرائي» أي من أظهر العمل الصالح للناس ليعظَّم عندهم «يرائي به الله» قيل معناه: إظهار سريرته للناس)) أي فضحه سبحانه وتعالى وأخزاه؛ لأن هذه الأعمال ما قام بها لله سبحانه وتعالى . أخذ يعمل الأعمال ويزينها وهو لا يريد إلا ثناء الناس ومدحهم . ولهذا جاء في بعض النصوص أن المرائين يقال لهم يوم القيامة: ((اذهبوا إلى من كنتم تراؤونهم بالأعمال، التمسوا عندهم أجرًا)) أو كما جاء في الحديث.

قال رحمه الله تعالى :

١١ – ولهما عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)) .

****

قال: «ولهما» أي البخاري ومسلم **عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى))** ؛ «إنما الأعمال بالنيات» أي معتبرة بنياتها.

((إنما الأعمال بالنيات)) أي بحَسَب النيات؛ فإذا كانت النية من العمل هو التقرب إلى الله سبحانه وتعالى وطلب رضاه جلّ وعلا فإن العمل يكون متقبلاً ، وأما إذا كان الإنسان له بعمله نية أخرى غير التقرب إلى الله فله ما نوى

((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) ؛ وهذا الحديث يُعد أصل عظيم من أصول الإسلام التي يقوم عليها دين الله تبارك وتعالى ، ولهذا اعتنى كثير من الأئمة وأهل العلم بتصدير مؤلفاتهم بهذا الحديث؛ لأن الدين كله يقوم عليه ، كل باب من أبواب الفقه وباب من أبواب العلم يقوم على هذا الحديث العظيم «إنما الأعمال بالنيات» ؛ «الأعمال»: أي ما يقوم به الإنسان من أعمال وقربات ليست معتبرة إلا بنياتها، فإذا كانت النية خالصة تُقُبِّل العمل، وإذا كانت ليست خالصة رُدَّ العمل على عامله ، ولم يُقبل منه، كما في الحديث القدسي الذي تقدم: ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)) .

قال رحمه الله تعالى :

١٢ – ولمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة ثلاثة : رجلٌ استشهد في سبيل الله فأتي به فعرَّفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ في سبيلك حتى قُتلت، قال: كذبت، ولكنك قاتلتَ ليقال هو جريء فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال هو عالم، وقرأت ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجلٌ وسَّع الله عليه فأعطاه من أصناف المال فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أنه ينفق فيه إلا أنفقتُ فيه لك، قال الله: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار.

وللترمذي فيه أن معاوية رضي الله عنه لما سمعه بكى وتلا قوله: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ الآية.

****

قال رحمه الله تعالى: ولمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((**إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة ثلاثة**)) أي أول الناس يُبدأ بمحاسبتهم ومعاقبتهم ثلاثة ؛ أي ثلاثة أصناف من الناس ، وذكر هذه الأصناف الثلاثة : الذي قاتل رياء، والذي حفظ العلم والقرآن وعلّم الناس رياءً ، والذي أنفق المال وبذل منه بسخاء رياءً ، وأن هؤلاء الثلاثة -مع أن هذه الأعمال أعمال كبيرة وعظيمة- أول من تُسجّر بهم النار ويُلقون فيها، وذلك لفساد النية.

وهذا الحديث يوضح لنا ما سبق في الحديث المتقدم: ((من سمّع سمّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به)) ، فهنا يأتي هؤلاء العاملون رياءً يوم القيامة، وإذا سئلوا قالوا كما في الحديث: عملتُ هذا العمل من أجلك، فالله عزّ وجلّ يقول: «كذبت»، يخزيه يوم القيامة ويفضحه ويُظهر سريرته ، من تعلم العلم يقول: «تعلمتُ العلم وعلَّمته وقرأت فيك القرآن»؛ "فيك القرآن" هذه سريرة ، الناس لا يطلعون على هذه السريرة، يُظهر لهم القراءة والصوت وإلخ، أما السريرة لا يعلمونها، فهو يقول: «قرأت فيك القرآن»، فيقول الله عزّ وجلّ: «كذبت»، أي ليس تلك القراءة وذاك التعليم وذاك التعلّم من أجلي وإنما ليقال عالم وليقال قارئ، فقد قيل، ثم يؤمر به ويسحب على وجهه حتى يلقى في النار. فإذًا هذا مما يوضح لنا ما سبق: ((من سمّع سمّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به)) .

وهذا أيضًا مما يوضح لنا حديث ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى)) ، وأن من كانت نيته في عمله خالصة لله عزّ وجلّ وابتغاء مرضاته جلّ في علاه فاز بثواب العمل وأجره ، ومن كانت نيته لغير الله -ولو كان عمله أكثر من الآخر وأقوى وأكبر- فإنه يُردّ عليه ولا يقبله الله سبحانه وتعالى منه.

ومن فوائد هذا الحديث: أن طلب العلم عبادة ، وحفظ القرآن عبادة ، وهو من جملة القُرب التي يتقرب بها العبد إلى الله سبحانه وتعالى، حتى قال بعض السلف: «ما تُقُرِّب إلى الله عزّ وجلّ بمثل طلب العلم» ، فطلب العلم قربة عظيمة مما يُتقرب به إلى الله ، وكما أن الصلاة لا تُقبل إلا بالنية الصالحة، والحج لا يُقبل إلا بالنية الصالحة، والصيام لا يُقبل إلا بالنية الصالحة ؛ فطلب العلم لا يُقبل إلا بالنية الصالحة، فإذا كان الإنسان في طلبه للعلم أو في تعليمه للعلم يريد بذلك ثناء الناس ومدحهم ومراءاة الناس ونحو ذلك فإن الله عز وجل لا يقبل منه طلبه للعلم . ولا يكون الأمر أيضًا ليس له ولا عليه ، ليس معنى «لا يقبله» أن يكون الأمر ليس له ولا عليه، بل كما نرى الآن، من أول من يُلقى في النار، وأول من يقضى عليهم يوم القيامة ؛ هذا كله مما يبين خطورة الرياء ، ووجوب إخلاص النية لله سبحانه وتعالى.

وهذا الحديث مما يحرّك في القلوب الخوف من الرياء والحذر منه، والخشية من حبوط الأعمال ، ولهذا معاوية لما سمع هذا الحديث بكى ، لأن هذا أمر يخيف الإنسان، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] ، يكون الإنسان عمل أعمال وبذل جهود كثيرة ثم يوم القيامة تُرد عليه لفساد نيته وعدم إخلاصه لربّه سبحانه وتعالى، ثم أولئك الذين كان يتظاهر لهم بالأعمال ويزين الأعمال لأجلهم لا ينفعونه يوم القيامة ولا بشيء ، كلٌّ همه نفسه، نفسي نفسي . فهذا كله مما يوجب الحذر من الرياء، والعمل على إصلاح النية. وإصلاح النية يحتاج إلى مجاهدة مستمرة

للنفس، كما قال الأوزاعي رحمه الله : «ما عالجتُ شيئًا أشد عليّ من نيتي»، فالنية تحتاج إلى معالجة ومداواة مستمرة واستعانة بالله سبحانه وتعالى.

وهذا الحديث من فوائده – وهي فائدة نبَّه عليها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى– وهي أنّ خير الناس هم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ، وشرّ الناس من يتشبَّه بهم من أجل أن يوهم الناس أنه مثلهم وهو ليس منهم، فسبحان الله! يعمل عمل خير الناس ، ويتعرف على أعمال خير الناس ويعملها ، ويكون شرَّ الناس! لفساد نيته، لأنه يعمل أعمال خير الناس من أجل أن يوهم الناس أنه مثلهم وهو لم يعمل لأجل الله وإنما عمل من أجل الناس؛ فكان بذلك شرَّ الناس . وهذا أيضًا مما يوضح لنا وجه كون هؤلاء من أول من يقضى ويعاقب يوم القيامة ؛ لأن هؤلاء شر الناس ، يظهِرون للناس أعمال الأنبياء والصالحين وأنهم على جادتهم وطريقهم ، وهم في الحقيقة إنما أرادوا بذلك مراءاة الناس وكسب ثناء الناس.

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ الفرح

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣] ، **وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾** [الطور:٢٦]، **وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾** [الأنعام: ٤٤] .

****

قال رحمه الله تعالى: «**بابٌ الفرح**» ؛ الفرح هذا أيضًا من أعمال القلوب ، فالقلب يفرح ويحزن؛ من أعماله الفرح، ومن أعماله الحزن، فالفرح من أعمال القلوب.

- ❖ والفرح الذي هو من أعمال القلوب يكون مذمومًا ومعاقبًا عليه صاحبه : إذا كان هذا الفرح منصرف إلى هذه الدنيا، هي همه وهي مبلغ علمه، إن أُعطي منها رضي وإن لم يُعط منها سخط، فهذا فرح مذموم ويعاقب عليه صاحبه يوم يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى .
- ❖ أما إذا كان الفرح فرحًا بالطاعة، فرحًا بالهداية، فرحًا بالتوفيق للإيمان، فرحًا بتيسير العبادة ؛ فهذا فرحٌ يُحمد ولا يذم، بل جاء الأمر به، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] ، هذا جاء الأمر به، أن يفرح الإنسان بما منّ الله عليه به من لزوم السنّة، والعناية مثلاً بطلب العلم، والمواظبة على العبادات والطاعات، والبعد عما نهى الله عزّ وجلّ عنه من المحرمات، فهذا فرحٌ يُحمد.

ولهذا قال العلماء في بيان الفرح الذي جاء ذكره في القرآن والسنة : إن الفرح الذي جاء ذكره في القرآن والسنّة على نوعين: فرح مطلق ، وفرح مقيد .

١. **أما الفرح المطلق** فهو مذموم ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] هذا فرح مطلق، فهو مذموم .

٢. والمقيد نوعان:

- النوع الأول: فرح مقيد بالدنيا، مثل في الآية الثالثة التي ساقها المؤلف، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ هذا فرح مقيد بالشيء الذي أوتوه ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

والنوع الثاني من الفرح المقيد: الفرح بفضل الله ورحمته، الفرح بكتابه، والفرح بالإسلام، والفرح بسنَّة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، الفرح بطاعة الله، ومنه قول الله عزّ وجلّ : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] .

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:١٣] ، **وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾** [الطور:٢٦] هاتان صورتان متضادتان ، أو حالتان متضادتان تظهر يوم القيامة :

✵ الحالة الأولى: حال من كان في هذه الدنيا فرِحًا بها، مقبلاً عليها، هي همه وهي مبلغ علمه، فرِحًا بالدنيا واللهث وراءها والسعي في طلبها ولا ينظر في العواقب، ولا يفكر في المآلات والوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى، يجمع مثلاً المال من الحرام ولا يفكر في العقوبة، يرابي ولا يفكر بالعقوبة، يغش ويمكر بالناس ولا يفكر بالعقوبة، وكلما حصّل من المال والمكاسب فرح ولا يفكر بالعقوبة، فهذا عقوبته عند الله عظيمة، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا(١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ [الانشقاق:١٠-١٤] ظن أنه ما في شيء بعد هذا، ولا فكر في الحساب، ولا أشفق من الحساب، ولا خاف من الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى، ﴿بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٥] ، ما يفكر ولا ينظر في العواقب، مسرور بالدنيا ولاهٍ بها، ومقبل عليها ومكب ولا يفكر بالآخرة، وليس مشفقًا من الآخرة، وليس هو خائف من العذاب الذي يوم القيامة.

✵ والحالة الثانية:ضد هذه الحالة ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ(٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور:٢٦- ٢٧] هذه حالة أخرى عظيمة جدًا ؛ ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ، هذا كان في أهله مسرورًا، أي فرحًا بما يحصّله من أمور الدنيا ومتع الدنيا ولا همّ له في الآخرة ولا همّ له في العواقب، وهؤلاء كانوا قبل في أهلهم مشفقين، ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي بين أهلنا ونحن في خوف من البعث والحساب والعقاب، وهذا الخوف هو الذي يولد صلاح في العمل، وصلاح في النية، وصلاح في الاستقامة على طاعة الله سبحانه وتعالى.

وهذا مما يفيد أثر رسوخ الإيمان باليوم الآخر في القلب على الأعمال صلاحًا واستقامة. لأن الإيمان باليوم الآخر على درجتين: إيمانٌ جازم ، وإيمانٌ راسخ . والإيمان الراسخ هو الذي تمكن من القلب وأصبح صاحبه مثل هذه

الحالة التي في هذه الآية الكريمة، مشفقًا من ذلك اليوم وخائفًا، كلما أراد أن يُقدم على عمل تذكر اليوم الآخر، وتذكر الحساب والوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] . **وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾** [الأعراف: ٩٩] .

****

قال رحمه الله تعالى : «**بابٌ ذكر اليأس من روح الله، والأمن من مكر الله**» ؛ هاتان كبيرتان من كبائر الذنوب، اليأس من روح الله والأمن من مكر الله، بل سيأتي في أثر ابن مسعود قرْن هاتين الكبيرتين بالإشراك بالله سبحانه وتعالى؛ مما يدل على خطورتهما.

قال: «**ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله**» ؛ اليأس من روح الله: أي أن قلب هذا الرجل اليائس سيطر عليه القنوط وعدم الأمل في نيل رحمة الله سبحانه وتعالى ، وهذا من المهلِكات، وقد مرّ معنا أثر ابن مسعود العظيم: «اثنتان مهلكتان: القنوط والعُجب». والقنوط مهلِك لصاحبه لأنه بسبب القنوط وسبب اليأس لا يعمل، بسبب القنوط وبسبب اليأس لا يتوب، اليائس من رحمة الله لا يتوب لا يُقبل على التوبة، اليائس من رحمة الله لا تتحرك نفسه للأعمال، كلما أراد أن يعمل قالت له نفسه المريضة باليأس: كيف تعمل وأنت وأنت وأنت؟! فلا يعمل، اليائس كلما حدَّثته نفسه بالتوبة إلى الله سبحانه وتعالى قالت له نفسه اليائسة القانطة من رحمة الله: كيف تتوب؟! وهل مثلك يصلح أن يتوب؟! وهل تُقبل من مثلك التوبة؟! فيسيطر عليه اليأس ويعطله عن التوبة من الذنوب ويعطله عن الأعمال، ولهذا من أعظم المهلكات للإنسان القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله ، ولهذا في الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] ، ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦] ، فلا ييأس ولا يقنط إلا من كان بهذه الصفة، فهذا من المهلكات العظيمة للإنسان.

«**والأمن من مكر الله**»: أي من عقوبته سبحانه وتعالى، فيكون الإنسان ماضٍ في تقصيره وتفريطه وارتكابه للذنوب وهو آمن من مكر الله أي من عقوبة الله سبحانه وتعالى ، والأمن من مكر الله أيضًا من المهلكات العظيمة.

والواجب على العبد ليسْلم من اليأس من روح الله والأمن من مكر الله أن يجمع لنفسه بين الرجاء والخوف، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] ، فيجمع لنفسه بين الرجاء والخوف، ويكون الرجاء والخوف عنده متوازنين، لا يغلّب أحدهما على الآخر، لأنه إن كان عنده رجاء بلا خوف أمِن من مكر الله ، وإذا كان عنده خوفٌ بلا رجاء قنِط من رحمة الله ويئس من روح الله.

ولهذا قال أهل العلم: «المطلوب من العبد رجاءٌ بلا إهمال، وخوفٌ بلا قنوط»؛ رجاء بلا إهمال للعمل وتفريط وتضييع ، وخوف بلا قنوط من رحمة الله، وإنما يكون الأمر متوازنًا بحيث يكون راجيًا للرحمة، وفي الوقت نفسه خائفًا من عذاب الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله» رواه عبد الرزاق.

١٣ – وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مرفوعًا، ولفظه: سئل ما الكبائر فقال: ((الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، واليأس من روح الله)) .

****

قال رحمه الله: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله**» ؛ القنوط من الرحمة واليأس من روح الله معناهما متقارب، لكن قال العلماء رحمهم الله تعالى: القنوط أشد اليأس، فأول ما يكون يأسًا ثم يشتد به الأمر فيكون قنوطًا من رحمة الله سبحانه وتعالى . وكما عرفنا أن القنوط واليأس إذا سيطر على القلب أهلك الإنسان، وعطله عن التوبة وعن العمل وعن الإقبال على عبادة الله سبحانه وتعالى، وهو من كبائر الذنوب.

والأمن من مكر الله كذلكم مهلكٌ لصاحبه، ولهذا تقدم في الآية: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. من موجبات الخسران الأمن من مكر الله ، والآمن من مكر الله سبحانه وتعالى يكون مسيئًا في العمل وظانًا أنه أهل للثواب ، ولهذا جاء عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: «إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمن»، المنافق جمع بين إساءة" أي في العمل، وأمن أي من مكر الله سبحانه وتعالى. فالأمن من مكر الله من موجبات الخسران والهلاك في الدنيا والآخرة ؛ ولهذا هو والقنوط من كبائر الذنوب وعظائم الآثام، وهما من أمراض القلوب.

قال: **وأخرجه ابن أبي حاتم** -أي في تفسيره- **عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مرفوعًا، ولفظه:** ((**سئل ما الكبائر فقال: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، واليأس من روح الله**)) .

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يصلح لنا شأننا كلَّه إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.